

## أدبية إعجاز الخطاب القرآني

- دراسة في أنظار الأوائل ومقولات المحدثين -

أ. زينة براهيمية

جامعة العربي التبسي - تبسة

### الملخص:

لما كانت قضية إعجاز القرآن من القضايا الحيوية المتجددة، لتعلقه بصحة الرسالة وصدق الرسول الذي جاء بها، وإقامة الحجة والبرهان على الجمهور الكوني في كلّ العصور، استحوزت منذ وقت مبكر على قدر كبير من اهتمام العلماء وعنايتهم.

ومع التأليف المستمرّ تطوّر هذا المبحث الجليل، وظفر رواده بدقائقه وخفياياه وأسراره وتهدف هذه الورقة إلى التنقيب في حيثيات البحث في هذه القضية عند القدامى من جهة وعند المحدثين من جهة أخرى، لإعمال فعل المقارنة بين الفريقين، للوقوف على نقاط المفارقة، كذا معرفة أسباب التطور والتأنج والاستفادة من ذلك.

### Abstract:

The miracle of koran is considered as vital renewable issue. For its attachment relationship with validity of the message and sincerity of prophet, who came out with, and for the establishment out with, and proof about human beings in all over.

Centries which acquired a great deal of interest in scientist, The continued authoring was developed with researches on these miracle studies

Their peers have got their details and secret. This study aims to investigate the merits of this case on ancients and modernists as well.

In order to compare between these two group and to find out the differences between them.

In addition to explore the causes, resultts, and benefits from it.

## 1- الإعجاز:

لم تفلح جهود المغرضين في التّيل من تعاليم ولا يقينيات القرآن الكريم، ولا أخباره وقيمته الفتيّة، كما لم تفلح في تقلص إنجاز يضاياه عمقا وأبعادا وقيمة وصدقا وقداسة، لأنّ القرآن الكريم كلام الله ورسالته الأخيرة المحفوظة للعالمين: «إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ» -سورة الحجر آية 09-

وليس هذا الحفظ مجرد كلام خطابي انفعالي تھومي، بل واقع ملموس يؤكّد مصدرية الإلهية العليا، بما يختزنه من طاقات ونفائس، تزداد توهّجا وعطاء كلما تقدّم به الزمن، وهو يحمل بكلّ صدق رهان التّحدّي في وجه كلّ المخلوقات عبر كلّ الزمن.

يقول "الشيخ القرضاوي": «من خصائص القرآن الكريم أنّه كتاب معجز، فقد جعله الله تعالى الآية الكبرى والمعجزة العظمى لخاتم رسله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بل جعله الآية الوحيدة المتحدّي بها، فلم يتحدّ المشركين بأيّ آية من الآيات التي منحه الله إيّاها على كثرتها وتنوّعها إلاّ بالقرآن حتى آية الإسراء من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، وآية المعراج من المسجد الأقصى إلى السّموات العلا إلى سدرة المنتهى، لم يعتبرها القرآن آية يتحدّي بها، إنّما تحدّاهم بالقرآن وبالقرآن وحده...»<sup>(1)</sup>

وقوله: "وبالقرآن وحده" يعني لغته، بلاغته، مفرداته، تراكيبه، تعبيره، سوره وآياته وحروفه كلّها.

يقول صاحب أهمّ رسالة في الإعجاز؛ "الباقلائي" (ت403هـ):

«كانت مسألة الإعجاز من أبرز المسائل التي تحاورها العلماء بالبحث أثناء تفسيرهم للقرآن، وردّهم على منكري التّبوة، وخوضهم في علم الكلام، "كعلي بن زين" كاتب "المتوكّل" في كتاب "الدّين والدّولة" و"كأبي جعفر الطّبري" في تفسيره: "جامع البيان عن وجوه تأويل آي القرآن" و"كأبي الحسن الأشعري" في مقالات "الإسلاميين"، و"أبي عثمان الجاحظ" في كتاب "الحجّة في تثبيت التّبوة، وكان علماء الاعتزال أكثر المثيرين للكلام في إعجاز القرآن.»<sup>(2)</sup>

(1) - يوسف القرضاوي: العقل والعلم في القرآن الكريم، مكتبة وهبة، القاهرة، مصر، ط1، 1996، ص287.

(2) - الباقلائي: إعجاز القرآن، تح: أحمد صقر، دار المعارف، مصر، (د.ط)، 2009، ص08.

ومن نصّه يظهر لنا جليًا أنّ أهمّ المسائل التي تناولها القدامى خاصّة هي مسألة الإعجاز، وقبل أن نتطرق إلى كيفية تناولهم لمسألة الإعجاز نتطرق إلى مفهوم الإعجاز والمعجزة ووجوهه.

## 2- مفهوم الإعجاز لغة:

ورد في لسان العرب لابن منظور: «العجز: نقيض الحزم، عن ابن الأعرابي: عجز فلان رأي فلان إذا نسبه إلى خلاف الخلاف، كآته نسبه إلى العجز... والعجز،... وأعجزه الشّيء: عجز عنه والمعجزة: واحدة معجزات الأنبياء عليهم السّلام.»<sup>(1)</sup>

أمّا "المعجم الوسيط" فجاء فيه: «عجز عن الشّيء عجزا وعجزانا: ضعف ولم يقدر عليه، وعجز فلان عن الشّيء عجزا: لم يكن حازما وأعجز فلان: سبق فلم يدرك... وأعجز فلانا وجدده عاجزا.»<sup>(2)</sup>

## 3- مفهوم الإعجاز والمعجزة في أنظار الأوائل:

### 3-1- عند "الباقلاّني":

يقول "الباقلاّني": «فأما دلالة القرآن فهي عن معجزة عامّة، عمّت الثّقلين وبقيت بقاء العصرين، ولزوم الحجّة بها في أوّل وقت ورودها إلى يوم القيامة على حدّ واحد، وإن كان قد يعلم بعجز أهل العصر عن الإتيان بمثله وجه دلالاته، فيغني ذلك عن نظر مجدد في عجز أهل هذا العصر عن الإتيان بمثله وكذلك قد يغني عجز أهل هذا العصر عن الإتيان بمثله، عن النّظر في حال أهل العصر الأوّل...»<sup>(3)</sup>

نقف على مفهوم الإعجاز عند "الباقلاّني" من خلال هذه الفقرة والذي يتموضع حول عدم الإتيان بمثله وعدم الإحاطة بذلك مهما أوتي من يحاول من قدرة على حسن التّأليف والنّظم في أيّ عصر.

### 3-2- عند ابن قتيبة من خلال تأويل مشكل القرآن:

(1) - ابن منظور: لسان العرب، دار الحديث، القاهرة، (د.ط)، 2003، مادة: (ع-ج-ز)، ص 691.

(2) - مجمع اللغة العربية: المعجم الوسيط، ج2، دار المعارف، القاهرة، ط2، 1973، ص 585.

(3) - الباقلاّني: إعجاز القرآن، ص 10-11.

يقول "ابن قتيبة": «كان لموسى فلق البحر، واليد والعصا، وتفجّر الحجر في التّيه بالماء الرّواء إلى سائر أعلامه زمن السّحر. وكان لعيسى إحياء الموتى، وخلق الطّير من الطين وإبراء الأكمه والأبرص إلى سائر أعلامه زمن الطّب، وكان لمحمّد -صلى الله عليه وسلم- الكتاب الذي، لو اجتمعت الإنس والجنّ على أن يأتوا بمثله لم يأتوا به، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا إلى سائر أعلامه زمن البيان.»<sup>(1)</sup>

نجد قاسما مشتركا بين "الباقلاني" و"ابن قتيبة" في مفهوم الإعجاز؛ فالترجلان يتفقان في دلالة اللفظة من حيث انتهاؤها إلى عدم القدرة على الإتيان بمثال القرآن وتعميم هذا على الإنس والجنّ، وزاد "ابن قتيبة" على "الباقلاني" أن أتى على ذكر معجزة كلّ من النبيين "موسى" و"عيسى" عليهما السّلام وغايته من ذلك تبيان أنّ معجزة كلّ نبيّ تناسب العصر الذي عاش فيه فلمّا كان النبيّ "موسى" عليه السّلام قد أرسل في زمن يحكمه منطق السّحر عند الفراعنة، كان من الضّروري أن يرسل بمعجزة تناسب مستوى الفكر الإنساني في ذلك الوقت، فتكون قريبة من أفق المتلقّي الذي يؤمن بالمحسوس أكثر من المجرّد هذا من جهة ومن جهة أخرى يبطل بها فرية من بعث إليهم، وذلك بإعجازهم بما ألفوه وهذا من قبيل الحكمة الإلهية أن يعجزهم بما يألّفون ويعرفون ويفعلون كذلك. والأمر نفسه كان مع النبيّ "عيسى" عليه السّلام الذي بعث ليتمّم شريعة النبيّ "موسى" عليه السّلام، فأرسل هو الآخر بمعجزات محسوسة، فلمّا كان النبيّ "موسى" عليه السّلام يحمل ثعبانا في عصاه التي يهشّ بها على غنمه ويشقّ بها في البحر طريقا يسا أمام العيان، كان النبيّ "عيسى" عليه السّلام يحيي الموتى ويشفي المرضى والأبرص والأكمه أمام العيان، أما النبيّ "محمّد" -صلى الله عليه وسلم- فلمّا بعث في أهل لغة وفصاحة وبلاغة على أنّه بعث إلى النّاس كافة كان لابدّ أن تكون معجزته ممّا ألفه أهل ذلك العصر من بلاغة ولغة راقية، فكان التّحدّي بلغة القرآن الكريم المكوّن من حروف لغتهم المنظوم بألفاظ معجمهم العربي المبين، الباهر في سبكه وحبكه لكأنّه نصّ واحد بل كلمة واحدة، وهذا ما أعجزهم.

### 3-3- عند "السيوطي":

يعرّف "السيوطي" المعجزة بقوله: «اعلم أنّ المعجزة أمر خارق للعادة مقرون بالتّحدّي سالم على المعارضة إمّا حسّية وإمّا عقلية وأكثر معجزات بني إسرائيل كانت حسّية لبلادهم وقلة بصيرتهم وأكثر

<sup>(1)</sup>-ابن قتيبة: تأويل مشكل القرآن، شر ونش: السّيد أحمد صقر، (د-م)، (د-ط)، (د-س)، ص109.

معجزات هذه الأمة عقلية لفرق ذكائهم وكمال إيفاهمهم ولأنّ هذه الشريعة لما كانت باقية على صفحات الدهر إلى يوم القيامة ليراها ذوو البصائر كما قال - صلى الله عليه وسلم -: "ما من الأنبياء نبيّ إلا أعطي ما مثله آمن عليه البشر، وإمّا كان الذي أوتيته وحيا أوحاه الله إليّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا" قيله: «إنّ معناه أنّ معجزات الأنبياء انقضت بانقراض أعصارهم فلم يشاهدها إلا من حضرها ومعجزة القرآن مستمرة إلى يوم القيامة...»<sup>(1)</sup>

ما زاد "السيوطي" عن كلام من سبقه إلا أنّه ذكر لفظا: "التحدّي والمعارضة" صراحة بينما لم يذكره "الباقلاني" و"ابن قتيبة"، وهما شرطان من شروط المعجزة، ولكنّ وعلى العموم، مفهومه للمعجزة مطابق لمفهوميهما؛ فلما فصلّ "ابن قتيبة" في ذكر "عيسى" و"موسى"، أجمل هو فقال "معجزات بني إسرائيل" ولما فصلّ "ابن قتيبة" في معجزات بني إسرائيل ما بين "موسى" و"عيسى" عليهما السلام أعرض عن ذلك "السيوطي" واكتفى بذكر لفظة جامعة دالة تنوب عمّا فصلّه "ابن قتيبة" فقال: "وأكثر معجزات بني إسرائيل كانت حسية" وأرجع سبب ذلك إلى بلادهم.

### 3-4- عند الأشعري:

جاء في تعريف "الإمام الأشعري" (ت 324هـ) وهو من علماء الكلام: «المعجزة فعل خارق للعادة مقترن بالتحدّي سليم المعارضة ينزل منزلة التصديق بالقول من حيث القرينة وهو منقسم إلى خرق المعتاد وإلى إثبات غير المعتاد.»<sup>(2)</sup>

ونلاحظ أنّ كلام "الأشعري" قريب من كلام "السيوطي" في تعريف المعجزة لما أتى على ذكر التحدّي والمعارضة ولكنّه أضاف عنصرا مهمّا ألا وهو التصديق بها؛ إذ لا يكفي المعجزة أن تكون خارقة للعادة سالمة من المعارضة بل يجب أن تتمكّن من نفس المتلقّي فيصدقها دون أيّ ملاحظة، وهذا يعني أنّ المعجزة تفرض تصديقها بنفسها لكونها معجزة، فلا تحتاج إلى حجّة لتأكيدّها، لكونها هي حجّة في حدّ ذاتها ما يؤكّد تصديقها مباشرة، وفي قوله أنّها تنقسم إلى خرق المعتاد وإلى إثبات غير المعتاد، فالمعجزة أمر طارئ كسر حدود المؤلف، وتجاوز الواقع، فما كان من المؤلف و لا من الواقع أنّ حبال السحرة وعصيهم تنقلب إلى أفاعي، إمّا كانوا يسحرون أعين الناس ويستربونهم فيخيّل إليهم من سحرهم أنّها تسعى، ثمّ

(1) -السيوطي: الإتيان في علوم القرآن، المكتبة التجارية الكبرى، مطبعة حجازي، القاهرة، مصر، (د.ط.)، (د.س.)، ص 116-117.

(2) - الشهرستاني: الملل والنحل، ج 2، تح: محمّد سيد كيلاني، دار المعرفة، لبنان، (د.ط.)، (د.س.)، ص 93.

جاءت عصا موسى لتكسر حدود المؤلف فتقلب حياة حقيقية فتلقف ما كانوا يأفكون وتشقّ البحر كلّ فرق كالطود العظيم، فالمعتاد أنّ الناس كانوا يتخيّلون ولا شيء من ذلك في الحقيقة فشكّلت بذلك عصا "موسى" عليه السّلام التي انقلبت حياة حقيقية خرقا للمعتاد. ويأتي "عيسى" عليه السّلام فيحيي من مات وما كان من المعتاد أن يقوم من انتهت ساعات حياته، فهذا إثبات لغير المعتاد.

#### 4- مفهوم الإعجاز والمعجزة عند المحدثين:

يرى "مناع القطان" أنّ الإعجاز بمعناه إثبات العجز، والعجز في التعارف اسم للقصور عن فعل الشيء، وهو ضدّ القدرة وإذا ثبت الإعجاز ظهرت قدرة المعجز والمراد بالإعجاز هنا: إظهار صدق النبي -صلى الله عليه وسلم- في دعوى الرّسالة بإظهار عجز العرب عن معارضته في معجزته الخالدة وهي القرآن وعجز الأجيال بعدهم. وينتهي إلى تعريف المعجزة بأنّها أمر خارق للعادة مقرون بالتحدّي سالم عن المعارضة.<sup>(1)</sup>

أمّا "مصطفى مسلم" فيقول: " أنّ مصطلح "المعجزة" لم يرد في القرآن الكريم ولا في السنّة المطهّرة إنّما ظهر هذا المصطلح في وقت متأخّر بعض الشيء عندما دوّنت العلوم ومنها علوم العقائد في أواخر القرن الثّاني الهجري وبداية الثالث"، لذا نجد أنّ القرآن الكريم قد استعمل كلمة الآية في صدد إعطاء الدلائل للرّسل عليهم السّلام، كما استعمل لفظة "البينة" واستخدم تارة أخرى لفظة "البرهان" كما يأتي التعبير عن المعجزة أحيانا بـ "السّلطان" ...»<sup>(2)</sup>

وتقول: "عائشة عبد الرّحمان": «يقال عجز عن الأمر إذا قصر عنه، وأعجزني فلان؛ أي فاتني... وكلّ هذه المعاني تفيد القصور، والفوت والسّبق، وهذا معنى الإعجاز لغة أمّا اصطلاحا: قصور القدرة البشريّة عن محاكاة القرآن الكريم والإتيان بمثله.»<sup>(3)</sup>

ولعلّ أشمل تعريف ورد عند المحدثين للإعجاز هو تعريف "سعيد رمضان البوطي" حيث قال: «الإعجاز عند الجمهور هو أنّ القرآن قد سما في علوّه إلى شأو بعيد بحيث يعجز الطّوق البشري عن الإتيان بمثله

(1) - مناع القطان: مباحث في علوم القرآن، الدّار السّعوديّة للنشر، ط2، ص 217-218.

(2) - مصطفى مسلم: مباحث في إعجاز القرآن، دار المسلم للنشر والتوزيع، ط2، 1996، ص 13-14-15. (بتصرف)

(3) - عائشة عبد الرّحمان: التفسير البياني للقرآن الكريم، دار المعارف، مصر، ط3، 1996، ص 53.

سواء في ذلك بيانه وبلاغته وفصاحته أو تشريعه وتنظيمه أو إخباره من غيب المستقبل أو الماضي السحيق.»<sup>(1)</sup>

إذا أعملنا فعل المقارنة بين مقولات القدامى والمحدثين في مفهوم المعجزة نجد أنّهما لا يختلفان، إنّما الذي يشدّنا هو ذكر المصطلحات المرادفة لمصطلح المعجزة عند المحدثين وهو ما غاب عند القدامى فـ"مصطفى مسلم" يذكر ثلاثة مصطلحات هي "البينة"، "البرهان" و"السلطان" كما ويظهر أنّ الباحث قام بتقريب دقيق عن مصطلح المعجزة في القرآن والسنة، فلم يعثر عليه، وهذه ميزة تضاف لتعريف الباحث، وكذلك الأمر نفسه عند الباحثة "عائشة عبد الرحمن" إذ تذكر "الفوت"، "السبق" و"القصور" على سبيل الترادف للمعجزة، فهي الأخرى حاولت التبسيط للقارئ بذكر مترادفات سهلة وبسيطة للمصطلح، وإن كان ما تذكره الباحثة من مترادفات يعتدّ به على سبيل تقريب المفهوم لا أكثر إذا قلنا بالرأي القائل بعدم وجود الترادف في اللغة العربية، وجاء تعريف "البوطي" - رحمة الله عليه - أشمل تعريف وأبلغه إلى قلب السامع حينما تكلم بوضوح عن مفهوم الإعجاز بكلام جامع في قوله " هو أنّ القرآن قد سما في علوّه إلى شأو بعيد" فالإعجاز عنده هو سموّ وارتفاع القرآن الكريم على مستوى طوق الخلق، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فقد ذكر بإيجاز وجوه الإعجاز المتمثلة في البيان، البلاغة والفصاحة، التشريع، التنظيم، والإخبار عن الغيب سواء المستقبل أم الماضي السحيق. وهذا ما خلّت منه مقولات غيره سواء من المحدثين أم القدامى، فما يحسب لتعريفه هو زيادته لوجوه الإعجاز ببلاغة وإيجاز.

وأخيرا يمكن القول إنّه لا فرق في مفهوم الإعجاز والمعجزة بين القدامى والمحدثين، إلا أنّ المحدثين كانوا أكثر دقة وتبسيطا لا أكثر. وما يسعنا قوله بعد هذه التعريفات النيرة هو أنّ المعجزة أمر خارق للعادة مخالف للسنن الكونية والعقلية، يستشهد بها مدّعي الرسالة على صدق دعواه، ولا تسمى معجزة إلا إذا وقع بها التحدّي وعجز الناس على الإتيان بمثلهما على وجه المعارضة.

## 5- في وجوه إعجاز القرآن:

يقول "الشيخ الزرقاني": «بلاغة القرآن الكريم وصلت إلى حدّ فاق كلّ بيان وأحرس كلّ لسان وأسكت كلّ معارض ومكابر، وهدم كلّ مجادل ومهاتر... والكلام في أسرار بلاغة القرآن ووجوه إعجازه يحتاج إلى شرح وتبيان.»<sup>(1)</sup>

<sup>(1)</sup> - محمد سعيد رمضان البوطي: روائع القرآن، مؤسسة الرسالة، بيروت، (د-ط)، 1996، ص116.

ويعدّد "الزرقاني" وجوه الإعجاز في أربعة عشر وجهاً أمّا الوجه الأوّل فيتمثّل في لغته وأسلوبه، ذلك أنّ القرآن جاء بالأسلوب الرّائع، المشتتمل على الخصائص العليا للتعبير؛ والوجه الثّاني يخصّ طريقة التّأليف فمن إعجاز القرآن الكريم أنّه لم ينزل جملة واحدة، بل نزل مفرّقاً منجّماً موزّعاً على فترة زمنيّة قدرها عشرون عاماً على حسب الواقع والظّروف المحيطة بالجماعة المسلمّة؛ أي مراعاة مقتضى الحال لكن حينما نقرأه نجدّه وكأنّه نصّ واحد على درجة فائقة من السّبك والحبك؛ متماسك منسجم لكأنّه نزل جملة واحدة، فكان من وجوه إعجازه الانسجام والوحدة والتّرابط، أمّا الوجه الثّالث فمتعلّق بعلومه ومعارفه، ثمّ إنّ القرآن الكريم جاء بمهدايات تامّة تفي بحاجات البشر في كلّ عصر ومصر وفاء لا يتضمّن أيّ تشريع بشري مهما بلغ من العدل ما بلغ، ويظهر هذا من تلك المقاصد التّبيلية التي يرمي إليها القرآن الكريم والتي منها إصلاح العقائد والعبادات عن طريق الإرشاد ما يركّبي التّفوس ويصلح الأحوال والأخلاق وهذا هو وجه الإعجاز الرّابع، أمّا الخامس فيتمثّل في تلك العلوم الكونيّة، التي كان القصد من ذكرها إنقاذ الإنسانيّة العاترة وهداية الثّققلين إلى سعادة الدّنيا والآخرة، ويتمثّل الوجه السّادس في سياسته في الإصلاح ذلك أنّ القرآن الكريم له طريق عجيب وسياسة حكيمة في إصلاح أحوال العباد؛ وتشكّل أخبار الغيب وجه إعجاز باهر واضح دون الرّجوع إلى التّفاسير، فقد اشتمل على أخبار غيبيّة كثيرة، لا يمكن أن تكون لا من تأليف شخص النّبي الأمين - صلى الله عليه وسلّم - ولا من تأليف غيره، وهذا هو وجه الإعجاز السّابع، أمّا الثّامن فمتعلّق بآيات العتاب والمقصود به أنّ القرآن سجّل في كثير من آياته بعض أخطاء في الرّأي على الرّسول - صلى الله عليه وسلّم - فجنده يتضمّن آيات عتاب لطيف أحياناً وأحياناً أخرى نحسّ بشدّته، ولا ريب أنّ العقل المنصف يحكم جازماً بأنّ هذا القرآن كلام الله وحده، ولو كان من عند محمّد - صلى الله عليه وسلّم - ما سجّل على نفسه هذه الأخطاء وهذا العتاب، أمّا الوجه التّاسع فمتعلّق بما نزل بعد طول انتظار ففي القرآن آيات كثيرة تناولت أموراً مهمّة ومع ذلك لم تنزل إلّا بعد تلبّث وطول انتظار و هذا دليل معجز على أنّ القرآن كلام الله لا كلام محمّد - صلى الله عليه وسلّم - فلو كان من عند الرّسول فلم الانتظار؟ خاصّة إذا تعلّق الأمر بمهمّات الأمور وتعلّق برجل عظيم يتحدّى قومه بل يتحدّى العالم كلّه، ويتعلّق الوجه العاشر بمظهر النّبي - صلى الله عليه وسلّم - عند هبوط الوحي عليه، إذ كان في أوّل عهده به يتعجّل في تلقّفه ويحرّك لسانه بالقرآن من قبل أن يفرغ أمين الوحي من إيجائه إليه، وذلك للإسراع بحفظه والحرص على استظهاره حتى يبلغه للناس كما أنزل، وكان - عليه الصّلاة والسّلام -

(1) - الزّرقاني: مناهل العرفان في علوم القرآن، تح: فوز أحمد زمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط01، 1995، ج1، ص240/241.

يجد من ذلك شدة على نفسه فوق الشدة العظمى التي يحسّها من نزول الوحي عليه، وتلك المشقة التي يجدها في تلقي الوحي دليل على أنّ القرآن كلام الله وحده وآية المبالغة هي الوجه الحادي عشر، ذلك أنّ القرآن الكريم دعا إلى المبالغة، فأبى المدعوون وهم النصارى من أهل نجران أنّ يستجيبوا لها وخافوها ولاذوا بالفرار منها، مع أنّها لا تكلفهم شيئاً سوى أن يأتوا بأبنائهم ونسائهم ويأتي الرسول بأبنائه ونسائه، ثم يجتمع الجميع في مكان واحد يتهللون إلى الله ويتضرعون إليه بإخلاص وقوة، أن ينزل لعنته وغضبه على من كان كاذباً من الفريقين، هذا الوجه يقودنا إلى الوجه القائل بعدم قدرة النبي الكريم على الإتيان ببديل عنه، ذلك أنّ أعداء الإسلام أعرضوا عن القرآن الكريم وطلبوا من الرسول - صلى الله عليه وسلم - أن يأتي ببديل عنه، وما كان له ذلك - صلى الله عليه وسلم - فهو نبي مرسل ليس له إلا أن يبلغ عن ربه ما يوحى له دون أن يبدله أو يأتي بغيره. ولو كان كلامه لاستطاع أن يأتي بغيره ليكون ذلك أروج لدعوته التي يحرص على نجاحها، لكنّه أعلن عجزه عن إجابة هذه المقترحات وهو وجه الإعجاز الثاني عشر، أمّا الثالث عشر فيتمثل في تلك الآيات التي تجرّد الرسول محمد - صلى الله عليه وسلم - من أن يكون له فيها حرف أو كلمة وتصفه بأنّه كان قبل نزول القرآن لا يدري ما الكتاب ولا الإيمان، فمنّ الله عليه بأن أتاه الكتاب والحكمة، وإنّ تأثير القرآن ونجاحه جوهر الإعجاز ووجهه الرابع عشر، فقد بلغ مبلغاً حرق به العادة في كلّ ما عرف من كتب الله والناس.<sup>(1)</sup>

## 6- الإعجاز في أنظار الأوائل:

يمثّل القرنين الهجريّين الرابع والخامس مرحلة خصبة في تاريخ الدراسات القرآنية والتّقديّة، وفيهما نضجت نظريّات العلماء في إعجاز القرآن وتجددت اتجاهاتهم ومنازعتهم في الكشف عن أسرارهم ومن أشهر المؤلّفات في إعجاز القرآن:

## 6-1- نظم القرآن للجاحظ

قد كشف فيه الجاحظ عن أسرار إعجاز القرآن الكريم بأسلوبه البليغ وبيانه الفصيح المأثور، وقد ألفه في الاحتجاج لنظم القرآن وغريب تأليفه، وبديع تركيبه على حدّ قوله في مقدّمة "كتاب الحيوان"<sup>(2)</sup> وهو من كتبه الضائعة.

(1) - ينظر الزرقاني: مناهل العرفان في علوم القرآن، ج 2، من ص 259 إلى ص 314.

(2) - الجاحظ: الحيوان، ج 1، تح: هارون عبد السلام، مكتبة مصطفى الباي الحلبي وأولاده، مصر، ط 02، 1965 - من المقدمة - ص 09.

## 6-2- إعجاز القرآن لأبي بكر الباقلاني:

هو أول كتب الباقلاني نشرها وأشهرها ذكرا، وأعظم كتاب ألف في الإعجاز إلى اليوم، وقد ذكر الباقلاني في مقدمته أنّ الذين ألفوا في (معاني القرآن) من علماء اللغة والكلام، لم يبسطوا القول في الإبانة عن وجه معجزته والدلالة على مكانه، مع أنّ الحاجة إلى ذلك البيان أمسّ، وأن ما صتفه العلماء في هذا المعنى جاء غير كامل في بابهِ والذي دعا الباقلاني إلى تأليف هذا الكتاب هو أنّ الناس سألوهُ أن يذكر جملة من القول جامعة تسقط الشبهات وتزيل الشكوك التي تعرض للجهال، وتنتهي إلى ما يخطر لهم ويعرض لأفهامهم من الطّعني وجه المعجزة، فأجابهم بتأليف هذا الكتاب، بيّن في مقدمته شرف القرآن الكريم، وأنّ البحث فيه والكشف عن معانيه من أهمّ ما يجب على المسلمين، كما بيّن فيها تقصير المؤلّفين في معاني القرآن في بيان وجه إعجاز القرآن وما نجم عنه.<sup>(1)</sup>

أمّا الفصل الأول فيبيّن فيه أنّ نبوة محمد -صلى الله عليه وسلم- مبنية على دلالة معجزة القرآن واستدلّ على ذلك بآيات كثيرة، وفصل القول في سورتي غافر وفصلت، وبيّن دلالاته على ذلك، أمّا الفصل الثاني فخصّه لبيان وجه دلالة معجزة القرآن على نبوة النبي، ثمّ كشف عن المعاني التي استقصى أهل العلم الكلام فيها قبله وما جاء به بعدهم، وبيّن أنّ الكتب السماوية الأخرى تشارك القرآن في الإعجاز من ناحية الإخبار عن الغيب وبيئتها في الإعجاز في النظم لأنّ الله لم يصفها بما وصف به القرآن، ولم يقع بها التحدّي كما وقع بالقرآن والفصل الثالث بيّن فيه وجوه إعجاز القرآن والفصل الرابع خصّصه لشرح هذه الوجوه، أمّا الفصل الخامس فقد خصّصه لنفي الشّعور عن القرآن الكريم والسادس نفيه السّجع عن القرآن الكريم، أمّا الفصل السابع فقد كان في ذكر البديع من الكلام حيث نقل جملة من بديع الشعر ونفى أن يكون القرآن متعلّقا بهذه الوجوه كالبديع والسّجع، أمّا الفصل الثامن<sup>(2)</sup> فيبيّن فيه كيفية الوقوف على إعجاز القرآن، ثمّ نقل نصوصا من خطب النبي -صلى الله عليه وسلم- وكتبه إلى الملوك والولاة وكذا كلام أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وغيرهم وذلك للقارئ الفدّ حتى يقع له الفصل بين كلام الآدميين، وبين كلام ربّ العالمين، ثمّ بعد هذا عقد بابا جليل الشّأن ص 236 بيّن فيه أنّ نظم القرآن يزيد في فصاحته على كلّ نظم، فعرض لكلام مسيلمة وعرض لجودة شعر امرئ القيس مع نقده، ثمّ ذكر آيات كثيرة وبين أسرار إعجازها على نحو بديع من ص 281 إلى غاية ص 322، ثمّ عاد لنقد الجاحظ في ص 377، ثمّ الفصل

(1) - ينظر: الباقلاني: إعجاز القرآن - المقدمة - ص 06.

(2) - ينظر: الباقلاني: إعجاز القرآن - المقدمة -، من ص 10 إلى ص 171.

التاسع بيّن فيه أن أهل الأعصار عاجزون كلّ العجز عن الإتيان بمثل القرآن، كعجز أهل العصور الأولى، ثمّ تلاه الفصل العاشر في قدر المعجز من القرآن عند الأشاعرة والمعتزلة، وبعده الفصل الحادي عشر ذهب فيه أنّ الأعجمي لا يمكنه أن يعلم إعجازه إلاّ استدلالاً، وكذلك غير البليغ من العرب، وجعل الفصل الثاني عشر فيما يتعلّق به الإعجاز أهو الحروف المنظومة؟ أم الكلام القائم بالذات؟ أم غير ذلك؟ وذهب إلى أنّ التّحدّي واقع إلى أن يأتوا بمثل الحروف المنظومة، والفصل الثالث عشر في وصف وجوه من البلاغة بدأه بذكر بعض أهل الأدب والكلام، ثمّ ذكر أنّ البلاغة عشرة أقسام، ثمّ عقد الفصل الرابع عشر في حقيقة المعجزة، وذكر أنّ الله يقدر على نظم هيئة أخرى تزيد في الفصاحة عليه، ثمّ عقد الفصل الخامس عشر في كلام النبي -صلى الله عليه وسلم- وأمور تتصل بالإعجاز بيّن فيه أنّه محال أن يكون القرآن من كلامه -صلى الله عليه وسلم- ويأتي الفصل السادس عشر وهو موجز بيّن فيه أنّ من شرط المعجز أن يعلم أنّه أتى به من ظهر عليه، والفصل الأخير رقم سبعة عشر قال فيه أنّ ما ذكره عن إعجاز القرآن فوجيز راجحاً في ذلك أن يكفي ويقنع،<sup>(1)</sup> وانتهى به الكتاب.

### 6-3- التّكت في إعجاز القرآن للرّماني: (ت386هـ)

كان قد بدأ كتابه ببيان وجوه إعجاز القرآن، فقال: «إنّهما تظهر من سبع جهات وهي: ترك المعارضة والتّحدّي للكافة، والصّرفة، والبلاغة، والأخبار الصّادقة عن الأمور المستقبلية، ونقص العادة وقياسه بكلّ معجزة»<sup>(2)</sup> ثمّ قسم البلاغة إلى ثلاث طبقات، فقال: «إنّ ما كان في أعلاها معجز، وهو بلاغة القرآن»<sup>(3)</sup> ثمّ عمد إلى البلاغة فقسمها إلى عشرة أقسام وفسّر كلّ قسم منها ثمّ عاد إلى الوجوه السّبعة التي ذكرها في أوّل الكتاب، وقال: «إنّما مظاهر إعجاز القرآن»<sup>(4)</sup>، وقد ذهب "الرّماني" إلى نفي السّجع عن القرآن، وتسمية ما فيه من ذلك فواصل، لأنّ الأسجاع عيب والفواصل بلاغة وهي تابعة للمعاني، وأما الأسجاع فالمعاني تابعة لها وهو قلب ما توجه الحكمة في الدّلالة.<sup>(5)</sup>

(1) - ينظر: الباقلائي: إعجاز القرآن، من ص380 إلى ص452.

(2) - الرّماني والخطّابي وعبد القاهر الجرجاني: التّكت في إعجاز القرآن، تح: محمد خلف الله، ومحمد زغلول سلام، سلسلة ذخائر العرب ع16، دار المعارف، مصر، ط03، 1976، ص75.

(3) - المصدر نفسه، ص75.

(4) - نفسه، ص76.

(5) - نفسه، ص97.

## 6-4- بيان إعجاز القرآن للخطابي: (ت388هـ)

هو أصغر كتبه حجما، بدأ كتابه بقوله: «قد أكثر الناس الكلام في هذا الباب قديما وحديثا، وذهبوا فيه كلّ مذهب من القول... وذلك لتعدّد معرفة وجه الإعجاز في القرآن...»<sup>(1)</sup> ثمّ عرض للأقوال التي قيلت قبله في وجوه الإعجاز، وبدأ برأي القائلين بأنّ النبي -صلى الله عليه وسلّم- قد تحدّى العرب قاطبة بأن يأتيوا بسورة من مثله فعجزوا عنه ثمّ نثى برأي القائلين بأن العلة في إعجازه بالصرّفة وقال: «بأنه وجه قريب، إلا أنّ القرآن الكريم نفى هذا، كما ذكر الخطابي المعاندين للقرآن، لما عجزوا عن معارضته وكرّ عليها ونقضها.»<sup>(2)</sup> وفصّل القول في تأويل الآيات الكثيرة التي أوردوها.

## 6-5- مباحث الإعجاز عند الجرجاني:

يعتبر "أبو بكر عبد القاهر الجرجاني" صاحب نظريّة خاصّة في البحث عن وجه إعجاز القرآن ولم يخصّص كتابا معيّنا يقصره على البحث في إعجاز القرآن؛ وإنما هي كتب ثلاث لها علاقة وثيقة بإعجاز القرآن وهي: أسرار البلاغة، دلائل الإعجاز، الرسالة الشافية.

ولقد شعر أنّ الذين سبقوه في التّأليف على إعجاز القرآن أكثروا من الحديث على الجانب اللفظي، ولم يتناولوا جوانب المعاني إلاّ لماما، فحصر كتاباته في هذا الجانب يقول في هذا الصّدّد: «واعلم أنّ ممّا هو أصل في أن يدقّ التّظّر، ويغمض المسالك في توحّي المعاني التي عرفت أن تتحدّ أجزاء الكلام، ويدخل بعضها في بعض، ويشتدّ ارتباط ثان منها بأوّل، وأن يحتاج في الجملة إلى أن تضعها في النّفس وضعا واحدا، وأن يكون حالها فيها حال الباني يضع بيمينه هاهنا في حال ما يضع بيساره هناك...»<sup>(3)</sup>

ويقول مبرزا وجهة نظره فيوجه إعجاز النّظم القرآني: «...ومن دقيق ذلك وخفيّه أنّك ترى الناس إذا ذكروا قوله تعالى: "اشتعل الرأس شيئا" - مرثم04- ولم يزيدوا فيه على ذكر الاستعارة ولم ينسبوا الشّرف إلاّ إليها، ولم يروا للمزيّة موجبا سواها، هكذا نرى الأمر في ظاهر كلامهم وليس الأمر على ذلك وذلك أنّنا نعلم أنّ (اشتعل) للشّيب في المعنى، وإنّ كان هو للرأس في اللفظ كما أنّ طاب للنّفس، وقرّ للعين، وتصبّب للعرق، وإن أسند إلى ما أسند إليه... يبيّن أنّ الشّرف كان لأن سلك فيه هذا المسلك

(1)-نفسه، ص 21.

(2)-الزّيماني والخطابي وعبد القاهر الجرجاني: التكت في إعجاز القرآن، ص 21.

(3)-الجرجاني: دلائل الإعجاز، شروتمع محمد التنجحي، دارالكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط 2005، ص 77.

وتوتّحى به هذا المذهب، وأن تدع هذا الطّريق فيه وتأخذ اللفظ إلى الشّيب صريحا فتقول: "اشتعل" شيب الرّأس، والشّيب في الرّأس ثم تنظر هل تجد ذلك الحسن وتلك الفخامة؟ وهل ترى الرّوعة التي كنت تراها؟ فإن قلت: فما السّبب في أن كان (اشتعل) إذا استعير للشّيب على هذا الوجه كان له الفضل، ولما بان بالمرّة من الوجه الآخر هذه البيونة؟ فإنّ السّبب أنّه يفيد مع لمعان الشّيب في الرّأس الذي هو أصل المعنى المشمول...»<sup>(1)</sup>

## 6-6- إعجاز القرآن عند المفسّرين:

من المفسّرين الذين تحدّثوا عن إعجاز القرآن في مقدّمات كتبهم في التّفسير؛ القرطبي في تفسيره "الجامع لأحكام القرآن" إذ خصّص في مقدّمة تفسيره بابا سمّاه: "باب ذكر نكت في إعجاز القرآن وشرائط المعجزة وحقيقتها" حيث بدأ بذكر المعجزة وشرائطها وضرورتها للرّسالة على طريقة علماء التّوحيد وعلم الكلام ثمّ ذكر وجوه إعجاز القرآن وجعلها عشرا.<sup>(2)</sup> ونجد أيضا "الألوسي" من المفسّرين الذين تطرّقوا إلى الإعجاز في تفسيره: "روح المعاني في تفسير القرآن الكريم والسّبع المثاني"<sup>(3)</sup>

## 7- الإعجاز عند المحدثين :

### 1- مصطفى صادق الواقعي:

هو عالم بالأدب، شاعر وكاتب ومن مؤلّفاته "تاريخ أدب العرب"، وهو جزآن و"تحت راية القرآن" و"أوراق الورد" وغيرها من كتب الأدب، وكان أبرز من تصدّى لـ "طه حسين" في كلامه حول الشّعير الجاهلي، وله كتاب في إعجاز القرآن تحت عنوان "إعجاز القرآن والبلاغة النبويّة".

### 1-1- جهات إعجاز القرآن عند الرّافعي من خلال كتابه: "إعجاز القرآن والبلاغة النبويّة"

حدّد "الرّافعي" في موضع من كتابه جهات الإعجاز فيقول: "إنّما هي صفات من نظم القرآن وطريقة تركيبه فنحن الآن قائلون في سرّ الإعجاز الذي قامت عليه الطّريقة وانفرد به ذلك النّظم".<sup>(4)</sup>

(1)- الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص82-83 (باختصار)

(2)- القرطبي: الجامع لأحكام القرآن: دار عالم الكتب، الرياض، السعودية، (د.ط)، 2003 - منالمقدمة- ص69 إلى 79

(3)- ينظر: الألوسي: روح المعاني في تفسير القرآن والسّبع المثاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان(د.ط)، (د.س)- المقدّمة-

(4)- مصطفى صادق الرّافعي: إعجاز القرآن والبلاغة النبويّة، دار الكتاب العربي، بيروت، (د-ط)، 2005، ص145.

إذا إعجاز القرآن عند "الرافعي" يكمن في طريقة نظمه وتأليفه، تماما مثلما كان عند "الجرجاني" الذي أرسى قواعد "نظرية النظم"، والنظم عند "الرافعي" ينقسم إلى: الحروف - الكلمات - الجمل.

أ- الحروف: يقول "الرافعي": «وقد كان منطق القوم يجري على أصل من تحقيق الحروف وتفخيمها ولكن أصوات الحرف إنما تنزل منزلة النبرات الموسيقية المرسلة في جملتها كيف اتفتقنلابد لها من نوع في التركيب، وجهة من التأليف حتى يمازج بعضها بعضا، ويتألف منها شيء مع شيء فتداخل خواصها، وتجتمع صفاتها، ويكون منها اللحن الموسيقي، ولا يكون إلا من الترتيب الصوتي الذي يثير بعضه بعضا على نسب معلومة ترجع إلى درجات الصوت ومخارجه وأبعاده.»<sup>(1)</sup> يتحدث "الرافعي" هنا عن تلك الطريقة التي اجتمعت بها الحروف في القرآن وتآلفت فيما بينها فكانت متجانسة لكأنها صوت واحد على خلاف ما ألفه البشر، ذلك أن اللفظ القرآني يجمع بين حروف متداخلة صفاتها، فلكنها لحن موسيقي عند النطق بها.

ب- الكلمات: يتحدث "الرافعي" عن جمال التنسيق في صف الحروف المشكّلة للكلمة الذي يتجلى في جوانب ثلاثة:

\* دلالة الكلمة الموضوعية: الذي سمّاه (صوت النفس)؛ أي المناسبة بين الكلمة ومدلولها.

\* الدلالة العقلية: للكلمات في الجملة والذي سمّاه (صوت العقل) وهي دلالة الكلمة البيانية.

\* تفاوت الجمل في دقة التصوير والإبداع: والذي سمّاه (صوت الحس) وهو أبلغ الثلاث.<sup>(2)</sup>

يقول "الرافعي": «إنّ القرآن قد حاز القدر المعجز من هذا الجانب، بل هو روح الإعجاز في القرآن كلّه فالقرآن يبادر الروعة في كل جزء منه، كما تبادر الحياة في كل حركة للجسم الحي.»<sup>(3)</sup>

ثم يحيلنا مباشرة إلى إعجاز القرآن في ألفاظه فيقول: «ولو تدبّرت ألفاظ القرآن الكريم في نظمها لرأيت حركاتها الصّرفية واللّغوية تجري في الوضع والتركيب، مجرى الحروف أنفسها فيما هي له من أمر

(1)-مصطفى صادق الرافعي: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص148.

(2)-مصطفى مسلم: راجع كتاب مباحث في إعجاز القرآن، دار المسلم للنشر والتوزيع، ط2، 1996، ص107.

(3)-المصدر السابق، ص152.

الفصاحة فيهيئى بعضها بعضا، والتي لا تجدها إلا مؤتلفة مع أصوات الحروف مساوقة لها في النغم الموسيقي.»<sup>(1)</sup>

ج - **الجمال**: تحدّث "الرافعي" عن التنسيق في انتظام الكلمات في الجملة وهذه التعبيرات المعجزة التي تتفاوت في البلاغة والحسن والجمال، فما إن تسمع جملة حتى تسحر لبك، وإن سمعت الأخرى تناسيت الأولى من روعة الثانية وهكذا القرآن كله يسير على هذه الوتيرة المعجزة إلا في آيات التشريع والأحكام، يقول "الرافعي" في هذا الموضوع: «فأنت مادمت في القرآن حتى تفرغ منه، لا ترى غير صورة واحدة من الكمال، وإن اختلفت أجزاؤها في جهات التركيب ومواضع التأليف وألوان التصوير وأعراض الكلام كأنها تقضي إليك جملة واحدة.»<sup>(2)</sup>

## 1-2- وجه إعجاز القرآن عند الرافعي:

ابتدأ "الرافعي" حديثه عن الإعجاز من الحروف وأصولها، ثم من الحركة الصّرفية واللّغوية للألفاظ القرآنية المشتملة على تلك الحروف وأكثر اهتمامه في إظهار إعجاز القرآن كان منصبًا على الألفاظ وعلى الجانب الصّرفي على وجه الخصوص.

فتجده يقول: «لو تدبّرت ألفاظ القرآن في نظمها لرأيت حركتها الصّرفية اللّغوية تجري في الوضع والتركيب مجرى الحروف أنفسها فيما هي له من أمر الفصاحة فيهيئى بعضها لبعض، ويساند بعضها بعضا، ولن تجدها إلا مؤتلفة مع أصوات الحروف، مساوقة لها في النظم الموسيقي...»<sup>(3)</sup>

ثمّ يضرب "الرافعي" أمثلة تؤيّد ما ذهب إليه، أمثلة من القرآن، يتناولها بالشرح والتحليل مبينا مزية اللفظة وهي داخل السياق القرآني عنها وهي خارجة عنه، ومبرزاً عجيب الانتقاء القرآني للألفاظ.

إنّ الملاحظ أنّ وجه الإعجاز القرآني عند الرافعي يبدأ من الحرف، ثمّ الكلمة ثمّ الجملة المتكونة من مجموع هذه الكلمات المعجزة؛ فهو بذلك تتبّع الإعجاز القرآني بشكل مفصّل بدءاً بأصغر وحدة في التعبير القرآني، ويبيّن مفاصل الإعجاز بشكل واضح بعبارته المشرقة وأسلوبه الفذّ.

(1)-المصدر نفسه، ص156.

(2)-مصطفى صادق الرافعي: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص166.

(3)- المصدر نفسه، ص156.

## 1-2- سيّد قطب:

"سيّد قطب" له مؤلّفات عديدة منها: "معالم في الطريق" "هذا الدين" "المستقبل لهذا الدين"، والكتب أكثر رواجاً كانت على القرآن: مثل: "التصوير الفني في القرآن"، "في ظلال القرآن"، "مشاهد القيامة في القرآن"، وقد ارتبط اسم: التصوير الفني في القرآن باسم "سيّد قطب"

### 1-2-1- رأيه في الإعجاز من خلال كتابه التصوير الفني في القرآن: يمثّل سيد قطب المرحلة الثالثة

في تذوّق الجمال القرآني، والذي يقسّمه هو إلى:

#### 1- مرحلة التذوّق الفطري: عند العرب الأوائل.

#### 2- مرحلة إدراك مواضع الجمال المتفرّقة: وهي العلماء الأوائل والمفسّرين.

#### 3- مرحلة إدراك الخصائص العامّة: في هذه المرحلة اكتشف "سيّد قطب" القاعدة العامّة والطريقة

الموحّدة في التعبير القرآني، وهي قاعدة التصوير الفني، والتي يكمن فيها سرّ الإعجاز.<sup>(1)</sup> يقول "سيّد قطب": «إنّ حقيقة جديدة تبرز لي، إنّ الصّور في القرآن ليست جزء منه، يختلف عن سائرهم، إنّ التصوير هو قاعدة التعبير في هذا الكتاب الجميل، القاعدة الأساسيّة المتّبعة في جميع الأغراض، فيما عدا غرض التشريع بطبيعة الحال،... ذلك توفيق لم أكن أتطلّع إليه حتى التقيت به.»<sup>(2)</sup>

### 1-2-2- مظاهر الإعجاز عند سيّد قطب:

يرى سيّد قطب أنّ الإعجاز في القرآن قائم على الإبداع في العرض والجمال، في التّسيق والقوّة في

الأداء والجمال في التّصوير.<sup>(3)</sup>

(1)- راجع كتاب مصطفى مسلم: "مباحث في إعجاز القرآن"، ص 113-114-115.

(2)- سيّد قطب: التصوير الفني في القرآن، دار الشروق، القاهرة، ط 16، 2002، ص 09.

(3)- راجع كتاب عمر محمد عمر باحاذق: أسلوب القرآن بين الهداية والإعجاز البياني، دار المأمون للتراث، دمشق/بيروت، ط 1، 1994.

ويرى أنه من مظاهر الإعجاز أيضا المشاهد القرآنية وأنها مشاهد حيّة منتزعة من عامل الإحياء مشاهد تقاس فيها الأبعاد والمسافات بالمشاعر والوجدانيات والخواطر والحلجات وترسم المواقف وهي تتفاعل في نفوس آدمية حيّة أو في شحوص من الطّبيعة تخلع عليها الحياة.<sup>(1)</sup>

ومن مظاهر الإعجاز أيضا عنده أنّ مثل هذه المشاهد حاضرة تراها العين وتحسّها النفس يقول: «فأما الحوادث والمشاهد والقصص والمناظر فيردّها شاخصة حاضرة فيها الحياة، وفيها الحركة، فإذا أضاف إليها الحوار فقد استوت لها كلّ عناصر التّخييل، فما يكاد يبدأ العرض، حتّى يجيل المستمعين نظارة وحتّى ينقلهم إلى مسرح الحوادث الأوّل.»<sup>(2)</sup>

كما يعتبر "سيد قطب" التكرار في قصص القرآن من مظاهر الإعجاز، إذ يختلف كل ورود عن الآخر يقول: «لقد كان أول أثر لهذا الخضوع أن ترد القصّة الواحدة في معظم الحالات مكرّرة في مواضع شتى، ولكن هذا التكرار لا يتناول القصّة كلّها-غالبا-إنّما هو تكرار لبعض حلقاتها ومعظمه إشارات سريعة لموضع العبرة فيها أمّا جسم القصّة كلّها فلا يكرّر إلا نادرا ولمناسبات خاصّة في السّياق.»<sup>(3)</sup>

إنّه من استقراء الباحثين لما كتبه "سيد قطب"، اهتدينا إلى أنّ الإعجاز عنده قائم في التّصوير القرآني الذي لم يسبق له مثيل والذي يبرز كظاهرة واضحة في أسلوب القرآن بشكل عام في التّعبير عن مشاهد الدنيا والآخرة بوجه خاص حيث المشاهد القرآنيّة المتحرّكة والماثلة أمام العيان، فلنكأها تراها العين أمامها حيّة وتمثّلها الأذهان شاهدة مع التّناسق في الجزئيات، كما يرى أنّه قائم أيضا في التكرار القصصي للقرآن. وفي الأداء المعتر والتّشريحات التي حواها القرآن.

ومن هنا يتّضح لنا أنّ "سيد قطب" في تناوله لقصيّة الإعجاز القرآني قد حرص على أن يركّز على جانبين في هذا الإعجاز العظيم، هما جانب الإعجاز البياني في أسلوب القرآن الكريم، وجانب الإعجاز في الهداية والإرشاد وهما لبّ إعجاز القرآن وثمرته.<sup>(4)</sup>

### 1-3- استظهار الفروقات في مبحث الإعجاز من خلال المؤلّفات:

(1)- راجع كتاب عمر محمد عمر باحاذق: أسلوب القرآن بين الهداية والإعجاز البياني، ص39-40.

(2)- سيد قطب: التّصوير الفنيّ في القرآن، ص38.

(3)- المصدر نفسه، ص155-156.

(4)- ينظر المرجع السابق، ص51.

### 1-3-1 - عند الأوائل:

إنّ نظرات القدامى اقتصرّت على نواح جزئية حيث أنّهم نظروا إلى الآية كوحدة منفصلة، وراحوا يستخرجون منها مباحث في اللغة والأدب والبلاغة والأصول والفقه والتشريع والعقيدة وغيرها، وألّفوا مؤلّفات كثيرة وضخمة في التفسير تملؤها مباحث في النحو والبلاغة، كما ألّفت كتب عديدة في علوم القرآن ضمّنت مباحث متنوّعة كقصص القرآن وبديع القرآن وتشبيهات القرآن ومعاني القرآن<sup>(1)</sup> ثم يدرج إلى جانبها مباحث إعجاز القرآن، وقلة هم من ألّفوا كتباً تتضمّن مبحث الإعجاز مستقلاً دون التطرّق إلى مسائل أخرى، وربّما هي نادرة مثل كتاب إعجاز القرآن للباقلاني فمعظمه يتحدّث عن الإعجاز، إلّا في الفصول التي أورد فيها خطبا للنبي -صلى الله عليه وسلم- والصّحابة -رضوان الله عليهم- ليظهر للقارئ الفارق بين كلام الله -عزّ وجل- وكلام الآدميين، وربّما هذا الاستطراد يعود إلى سعة العلوم وتشعبها في ذلك العصر، ويعود عدم الدّقة في دراسة مبحث الإعجاز عند القدامى إلى العقليّة التجزيئية العربيّة التي تناول كل نصّ على حدى فتحلّله وتبرز الجمال الفئّي فيه إلى حدّ المستطاع لكن في مواضع متفرّقة دون أن تتجاوز هذا إلى إدراك الخصائص العامّة في العمل الفنيّ كلّه.

### 1-3-2 - عند المحدثين:

عند المحدثين استجدّت نظريّات لم تكن معروفة من قبل، كنظريّة الإعجاز العلمي، والنظرة إلى الأمور العلميّة، وما فيها من قدرة كونيّة تدل على وحدانيّة الخالق وإعجاز القرآن الباهر كما نحسّ مدى التركيز على الأمور الغيبية كظاهرة إعجازيّة فريدة تستلزم اليقين والتصديق بقدرة الواحد المبدع، إضافة إلى أنّه نجم الكثير من العلماء المحدثين الذين أشبعوا ظاهرة الإعجاز في القرآن بحثاً واستقراءً واستقصاءً بأسلوب مسهب بديع لا يخلو من التّذليل،<sup>(2)</sup> وقد كانت نعم البحوث هي وبذلك نستطيع القول اعتماداً على ما سبق أن مبحث الإعجاز في الخطاب القرآني كان له وزنه التّقييم منذ القدم، إلّا أنّ تطوّر على يد المحدثين الذين تناولوه بأكثر دقّة وتفصيلاً.

(1)-لمزيد من التفصيل ينظر: مصطفى المسلم: مباحث في إعجاز القرآن، ص115.

(2)-عمر محمّد عمر باحاذق: راجع أسلوب القرآن بين الهداية والإعجاز البياني، ص52.

## خاتمة:

لاشك أن البحث يشرف بموضوعه وغايته، والبحث في إعجاز الخطاب القرآني من أشرف الموضوعات، لذا فإن التنقيب في الحيز الذي شغلته هذه القضية في المدونة التراثية والحداثية، من أهم المواضيع، ولقد تناول هذا البحث المتواضع في عدد صفحاته وسطور كلماته عددا من العلماء الأفاضل القدامى الذين بحثوا في هذه القضية شرحا وتحليلا وتنقيبا، كالباقلائي، ابن قتيبة، السيوطي، الجاحظ، الرماني، وغيرهم.

ثم المحدثين الذين اکتفينا بنموذجين عنهم، وهما الرافعي، وسيد قطب، ولقد وقف البحث عند نقاط المفارقة بين الجيلين في كيفية تناول مبحث الإعجاز، فكانت نظرات القدامى تجزيئية منفصلة بعضها عن بعض، تحيط بها مباحث في علوم شتى، فيما كانت تحليلات المحدثين أكثر شمولية وعمقا وإحاطة واستقصاء، غير أنه عموما لا يزال مبحث الإعجاز يحتاج إلى العديد من الدراسات، فقد ترك لنا الخطاب القرآني ثروة هائلة من البيان العربي تفني الأعمار في تحصيلها، وهي باقية خالدة لمن شاء أن يفيد أو يتعلم.